مرجعية الأحداث السياسية في روايات ضياء جبيلي

The Referentiality of Political Events in the Novels of Diaa Jbeili

نور عبد الغني عبد الرحمن

Noor Abdulghani Abdulrahman

جامعة سامراء / كلية التربية/ قسم اللغة العربية

University of Samarra / College of Education / Department of Arabic Language

أ.د دلال هاشم كريم

Prof. Dr. Dalal Hashim Karim

جامعة سامراء / كلية التربية/ قسم اللغة العربية

University of Samarra / College of Education / Department of Arabic Language

الكلمات المفتاحية: السياسة، الرواية، جبيلي، العراق، الانتفاضة

Keywords: Politics, Novel, Jbeili, Iraq, Uprising

الملخص

يتناول هذا البحث مرجعية الأحداث السياسية في روايات ضياء جبيلي، بوصفها عنصرًا بنيويًا فاعلًا في تشكيل الخطاب السردي والدلالي للنصوص الروائية، وينطلق من رصد التحولات التي شـــهدتها الرواية العراقية بعد عام ٢٠٠٣م، حين تحررت من هيمنة الحزب الواحد والرقابة الصـارمة؛ لتصـبح السياسـة محورًا رئيسًـا في التعبير عن الواقع العراقي المأزوم، ويكشـف البحث أن ضـياء جبيلي يسـتند في رواياته إلى أحداث سـياسـية مفصـلية، مثل اسـتبداد النظام السـابق، والحرب العراقية الإيرانية، والتجنيد الإلزامي، وغزو الكويت، والانتفاضـــة الشـــعبانية، وقضـــية الأكراد، فضـلًا عن الفسـاد السـياسـي وهيمنة الأحزاب بعد عام ٢٠٠٣م، ليحوّلها إلى مرجعيات سـردية تكشـف العنف السـياسـي وتداعياته الإنسـانية، كما يبرز البحث أن الكاتب لا يوظف هذه الأحداث بوصـــفها خلفية تاريخية محايدة، بل يجعلها بؤرة دلالية تنتج خطابًا نقديًا يعرّي آليات السلطة، ويكشف تناقض الشعارات الأيديولوجية مع الممارسات القمعية.

ويخلص البحث إلى أن روايات ضـــياء جبيلي تمثل نموذجًا للرواية الســـياســـية العراقية المعاصـرة، التي تمزج بين التخييل والواقع، وتعيد إنتاج التاريخ السـياسـي بوصـفه تجربة إنسـانية مأساوية حاضرة في الذاكرة الفردية والجمعية.

Abstract

This study examines the referentiality of political events in the novels of Diaa Jbeili, considering them an active structural element in shaping the narrative and semantic discourse of the fictional texts. It proceeds from tracing the transformations witnessed by the Iraqi novel after 2003, when it was liberated from the dominance of the single-party system and strict censorship, allowing politics to become a central axis for expressing the troubled Iraqi reality. The study reveals that Diaa Jbeili's novels draw upon pivotal political events—such as the tyranny of the former regime, the Iran–Iraq War, compulsory military service, the invasion of Kuwait, the Sha'baniyya (March) Uprising, the Kurdish issue, as well as political corruption and the dominance of parties after 2003—transforming them into narrative referents that expose political violence and its human consequences. The research also highlights that the author does not employ these events as neutral historical backdrops; rather, he renders them semantic focal points that generate a critical discourse unveiling the mechanisms of power and exposing the contradiction between ideological slogans and repressive practices. The study concludes that Diaa Jbeili's novels represent a model of the contemporary Iraqi political novel, one that blends fiction with reality and re-produces political history as a tragic human experience embedded in both individual and collective memory.

المقدمة

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم..

شـهدت الرواية العراقية تحوّلًا جذريًا بعد سـنة ٢٠٠٣م، تمثّل في انفتاحها الواسـع على المرجعيات السياسية التي كانت لسنوات طويلة محاصرة بالرقابة والقمع الأيديولوجي. فقد أسهم سـقوط النظام السـياسـي الأحادي في تحرير السـرد الروائي من قيوده التقليدية، وأتاح للروائي العراقي أن يستعيد صوته النقدي، ويواجه الواقع السياسي والاجتماعي بجرأة غير مسبوقة. وفي هذا السـياق، برزت روايات ضـياء جبيلي بوصـفها نموذجًا سـرديًا كثيف الاتكاء على المرجعية السياسية، إذ استثمر الكاتب الأحداث المفصلية في تاريخ العراق الحديث، مثل الاستبداد البعثي، والحروب، والحصـار، والاحتلال، والنزاعات القومية، ليحوّلها إلى مادة روائية فاعلة تكشـف بنية العنف السلطوي وآثاره في الفرد والمجتمع. ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن مرجعية الأحداث السياسية في روايات ضياء جبيلي، وبيان آليات توظيفها سرديًا ودلاليًا، ودورها في إنتاج خطاب روائي نقدي يعكس الذاكرة العراقية المثقلة بالصراعات والانكسارات.

أولًا: الرواية العراقية بعد ٢٠٠٣ والمرجعية السياسية:

شـــهدت الرواية العراقية بعد عام ٢٠٠٣م تحولات هائلة وتغييرات في الموضـــوعات والاتكاء المرجعي لم تعهدها من قبل، وهذا التغيير السـياسـي حصـل بسـقوط النظام السـياسـي السابق أنعكس على السرد الروائي بعد محنةٍ طويلة خاضتها الرواية العراقية قبل هذا العام متنقلة بين روايـة تحمـل الرمز والأســـطورة، أو روايـة الحروب التي أرخـت للحروب العراقيـة مطلع الثمانينيات من دون أن يكون هناك متنفس للكتابة عن الحالة العراقية وخوض معتركها بجرأةٍ لما كان من ســيطرة الحزب الواحد، وقبل هذا الفكر الشــيوعي الذي تبعه الفكر القومي في إرســاء صورة قمعية على الأدب.

إنَّ المد الشـيوعي الذي سـاد بعد سـقوط الملكية وما يتمتع به من أسـس ثقافيَّة زرعها مثقفون رواد، وروتها دماء مناضلين، وترعرعت في بيئة حاضنة للإبداع. لقد نجح في تقديم نفسه ليس فقط كحزب سياسي، بل كـــ مشروع ثقافي واجتماعي شامل، استطاع من خلاله أن يخترق قلوب وعقول العراقيين لعقود طويلة، وبعده المد القومي الضـــيق المتمثل بحزب البعث، أســـسـا ســـياقًا جماعيًّا هيمن على الثقافة العراقية لعقود، وقد تماهى الكُتاب في هذا الســـياق، ولم يخرج عنه أحد إلا ما ندر، فأيُّ روائيٍّ يمكن له أن يبرز أناه وســـيرته واعترافاته قبالة العالم، وينتقد ويشاكس السلطة، ويعترف بخطاياه الحزبية ويبث تمرده، في حواضـن اجتماعية محافظة، وفي ظل تيارات ســياســية خطيرة واســتبدادية، فليس لأحد الحق في أن يفكر خارج النســق والســرد

الحزبي؛ لذلك حاول الروائي آنذاك المخاتلة قدر اســتطاعته؛ لتكن بعيدًا عن أعين الرقابة وموضوعاتها. (طاهر، ٢٠٢١، ٢٣)

تمثل السيطرة الحزبية التي سبقت عام ٢٠٠٣م فرضت على الأدب نوع من الشلل، وأدى إلى تقييد المرجعيَّة السياسية كنوع من أنواع التأسيس لنص يقوم على هذه المرجعية، كما أسهمت هذه الدكتاتوريات في حضور رؤية نقدية غريبة عن الفن، مثل تلك الرؤية التي نلمسها في قول الناقد عبد الجبار البصري ((الذي لا نستطيع أن نتجاهله أن القصة العراقية شهدت تحولات واضحة من الخمسينيات وحتى اليوم وأن هنالك عدداً من القصاصين فاجأوا الوسط الثقافي بموهبتهم، وكان الحزب هو الناقد الذي استطاع أن يحقق كل هذا، فبفضل التوجيهات الحزبية تجاوزت القصة العراقية المظاهر السلبية التي أخذت عليها في مرحلة الستينيات وتحوّلت إلى الالتزام بقضايا الجماهير المصيرية. وبفضل التوجيهات الحزبية تبلور اتجاه واقعي قومي اشتراكي في كتابة القصة، واشتد ساعده بعد أن كان رخواً حيياً)). (البصري، د.ت، ٩٣)

يتبين أن هذه السطور الأخيرة ستوفر علينا مشقة البرهنة على أن الروائي العراقي آنذاك ليس حرّاً في أن يضع ذاته موضوعًا لروايته ولاسيما إن كان هذا الموضوع سياسيًا، متكورًا عليها، معترفًا وشاهدًا. بعد نهاية الحقبة الأحادية البعثية الجائرة سنة ٢٠٠٣م، تعددت الأنواع الروائية في المشهد السردي العراق، على الرغم من غياب الاستقرار السياسي والاحتماء، بين احتلال غاصب وحروب أهلية متنازعة، إلا أنَّها مكنت من ظهور جيل من الروائيين الذي تشربوا حياة العنف السابقة والحروب وأعادوا كتابتها وفق رؤية جديدة وسقف من الحرية في الكتابة والنشر. (طاهر، ٢٠٢١، ٢٤)

ولما كانت للرواية القدرة ((على التعبير على أزمات الإنسان وقضايا الواقع من خلال حساسية خاصة تجيد طرح الأسئلة وإثارة الانتباه)) (وادي، ١٩٩٤، ٣) نهضت الروايات العراقية وجيل الكُتاب الصادرة منذ دخول قوات الاحتلال الأمريكي وسقوط النظام السابق عام ٢٠٠٣، تظهر وبشكل جلي، فكرًا روائيًّا لكُتاب نستطيع أن نتلمس وعيهم الكامل بهول الكارثة التي كانوا يعيشونها وبالعقود التي تراكمت ومحاولة استثمارها روائيًا، وكأن شيئًا كان جاثمًا على حريتهم وقدراتهم الإبداعية لسنوات طوال، قد أُزيل بقدرة سحرية لتنطلق الرواية العراقية بفورة هائلة ملفتة للأنظار، وصار الوجع العراقي، والحروب والموت والزنازين والخوف والسياسة المتهورة ومصادرة كرامة الإنسان في ظل سنوات حكم الديكتاتورية وما تلاها من تبعا فجائعيه الاحتلال والإرهاب والموت المجاني الإحباط وتكسر أحلام المنفى على دكةِ الواقعِ المتناقض، وغيرها الكثير هي التي طبعت الرواية العراقية. (السكاف، ٢٠١٤، ١٠)

إن الكتابة التي جاء بها (ضـياء جبيلي) ولا سـيما وأنَّ هذا الكاتب ينتمي إلى جيل ما قبل ٢٠٠٣م، تتمحور في الغالب الأعم على فكرة الدكتاتوريات، والحرب الإيرانية الطويلة، والحصار الاقتصادي الخانق الطويل أيضاً، ثم احتلال العراق من قِبل جيش ومخابرات الولايات المتحدة الأميركية، وما فيه من أزمات مثل تجريف الشـــجر، والأمراض، والأوبئة، ثم حرب تنظيمات القاعدة وداعش، ثم الهجرات إلى أوروبا في مراكب الموت، وغيرها من الأحداث التي أتت ذات طابع سياسي، واستند الكاتب فيها إلى مرجعية سياسية خالصة؛ لأن الروائي عاصر حقبات متعددة بأحداثها وواكب ظروف سياسية كثيرة مرت على البلاد.

لقد أصـبحت السـياسـة محورًا فكريًّا في الرواية المعاصـرة، مهما تنوعت مواضـيعها، وتعددت أبعادها الاجتماعية والواقعية، وتخطت مفهوم الحداثة إلى مابعد الحداثة والتنويع الفني في تلك الفترة، فإن الرواية تُعبر عن الأطروحة السياسية إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مما يدفعنا للقول إنَّ السـياسـة حاضـرة في كل الخطابات والفنون والأجناس الأدبية. وتتمظهر بجلاء ووضـوح في فنِ الروايةِ التي تعكس نثرية الواقع وصـراع الذات مع الموضـوع والصـراع الطبقي والسياسي والتفاوت الاجتماعي وتناحر العقائد والإيديولوجيات والتركيز على الرهان السياسي في ضوء نقـــد الواقع السائد واستشراف الممكن السياسي. وتستند الرواية السياسية إلى بلاغة الإقناع والدعاية والتحريض والالتزام وتبليغ الأطروحة المقصـــودة بشـــتى الوســـائل؛ لأن الغاية تبررها وتعضـدها. كما تنبني على بلاغة التكرار لتحريك الشـعور السـياسـي الثقافي. وتتكئ هذه الرواية على السرد التفصيلي والحوار التسجيلي والمنحى الواقعي لتسجيل المعطى وتهويله وتصويره سلبيًا أو إيجابياً. وتشـحن الرواية ذات الأطروحة السـياسـية بتعاليم تنزع على توضـيح حقيقة عقائدية وسـياسـية. وتصـبح هذه التعاليم العقائدية السـياسـية بؤرة تعكس مفهوم الأطروحة في الرواية. (وادي، ٢٠٠٣)

ثانيًا: الأحداث السياسية التي استندت إليها نصوص ضياء جبيلي الروائية:

❖ **استبداد النظام السابق:**

تمثل الأحداث التي اسـتند إليها ضـياء جبيلي هي المرحلة التي سـبقت الاحتلال عام ٢٠٠٣م، إذ كانت ذاكرة الأدباء مُثقلة من ذلك السـكوت والكبت الطويلين، وبعد السـيطرة التامة لحزب البعث الذي تدخل حتى في كتابة الرواية جاءت عن طريق رئيس النظام السياسي الأسبق للعراق الذي طلب من الروائيين الشـــروع ((في كتابة الرواية الطويلة كي يتمكنوا من متابعة الوقائع اليومية التي شـهدها العراق ومنها الغارات التي تشـنها الطائرات الأميركية والبريطاني))، (صـاغية، ٢٠٠٣، ٢١٥) لذلك أراد الأدباء الحرية في تصـوير العالم قبل الاحتلال، وجبيلي من هؤلاء.

في رواية (لعنة ماركيز) نراه يتخيل ماركيز وهو يكتب عن الشـرق والعراق خصـوصًـا بذكر حدث سياسي يستثمره الكاتب:

((قبل أن يجلس خلف مائدة الكتابة ليسرد للعالم المتحضر روايته الجديدة مع عاهراته الكثيرات، أو ربما سـيشـرع بكتابة رواية عن الشـرق الأوسـط، وتحديداً عن جمهورية المقابر الجماعية). (جبيلي، د.ت، ٢٢)

يتضـح في النص نوعًا من التخيل عندما يتخيل أن الروائي الكولومبي ماركيز سـيكتُب يومًا عن الشرق ومشكلاته، على أساس أنَّ الشرق الأوسط حافل بالأحداث التي قد تكون مشوقة لكاتب عريق، ولاســـيما العراق الذي أطلق عليها الراوي (جمهورية المقابر الجماعية)، **(المقابر الجماعية في العراق:** يعني الكاتب المقابر الجماعية التي شـــهدها العراق في ظل نظام الحكم السياسـي لحزب البعث ورأس السلطة، وتُعد المقابر هذه المقابر من أبرز الشواهد على انتهاكات حقوق الإنسان الجسيمة التي ارتكبت في خلال ذلك النظام بين المدة من ١٩٦٨–٢٠٠٣م، وهي لا تُمثل فقط جرائم قتل جماعي واختفاء قسري، بل تكشف سياسة منهجية للقمع والإبادة اعتمدها النظام ضد كل من شكّل تهديدًا فعليًا أو متخيلًا لسلطته. لقد استهدفت هذه الجرائم فئات متعددة من مكونات الشعب العراقي، العرقية والدينية وإلى المعارضين السياسيين من مواطني البلد، من دون تمييز في السن أو الجنس. تميزت هذه المرحلة التاريخية السوداء باستخدام العنف الممنهج الطويل لإخفاء آثار الجرائم، إذ دفنت آلاف الجثث في مواقع سرية، بعد إعدام أصـحابها بشـكل جماعي، أو دفنهم وهم أحياء في بعض الحالات. كما لجأ النظام إلى طمس الأدلة والتكتم على مواقع هذه المقابر باســـتخدام الأجهزة الأمنية والإعلامية، بما يُظهر الطابع المنظم لهذه الجرائم. (عودة، ٢٠٠٩، ١٣) وفي هذا الإطلاق وهذه التسمية إحالة إلى العراق وإلى حدث سياسي، وهو قضـاء السلطة الحاكمة آنذاك على معارضـيها عبر قتلهم ودفنهم في قبر جماعي كبير، ومن ثم اسـتعانة الكاتب لهذه التسـمية السـياسـية التي أطلقها العراقيون بعد ٢٠٠٣م لغرض توظيفها وصـناعة عنصـر التشـويق في النص، عبر الاتكاء المرجعي الذي يمثل إدانة لنظام ما قبل ذلك العام.

ومن الموضـوعات السياسـية في رواية (لعنة ماركيز) التي شـهدت الاتكاء على حدث سـياســي هو الخدمة الإلزامية في عهد ذلك النظام الاسـتبدادي، الذي يُعدُّ سـيء الصـيت بين الحكومات الســـابقة التي تراودت على حكم العراق وقد قام الحاكم المدني الأميركي بريمر بإلغاء هذا القانون عند احتلال العراق، ونرى العقوبات الشديدة على من يتخلف:

((ألم يكتفوا بقطع أذنيـه، ووَشْـــمِ جبينـه؟ أهكذا يجلب التخلف عن أداء الخدمة العسكرية في الجيش للمتخلف حبل المشنقة، ليشنقه من رقبته كالدجاجة، فينتهي بذلك تأريخ عيني "جلجامش" المحولتين اللتين رأى فيهما كل شيء))؟! (جبيلي، د.ت، ٢٣)

يبدو في النص أن العقوبات القاسية المستهجنة التي يقررها النظام السياسي آنذاك على من يتخلف عن الخدمة العسكرية إذ يحيل النص الذي أمامنا واقعة تاريخية بقدر ما يؤسس لمشهدية درامية للقسوة. يستخدم الكاتب تقنية "الغرائبية" (قطع الأذن والوشم) ليخلق مسافة نقدية مع القارئ، ثم يصـــدمه بالعنوان الأكبر (جلجامش) ليرتقي بالمأســـاة من فردية إلى مأســـاة وطنية/حضارية.

المضـــمر في الخطاب ليس فقط نقد نظام الحكم، بل نقد قطيعة عميقة في التاريخ العراقي: قطيعة بين أرض الرافدين (جلجامش) ومن يعيشـــون عليها اليوم (الأنظمة)، وبين قيمة الإنسان (التي جسدتها الملاحم القديمة) وتسعيرة الجندي (التي تحددها الدولة الحديثة)، إنه نص يحول "المتخلف عن الخدمة" إلى ضحية لتاريخ متخلف عن الحضارة، إذ اضطر مئات الآلاف من المجندين الإلزاميين إلى البقاء في الخدمة العسكرية خلال الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠م – ١٩٨٨م) إلى نحو ثماني سنوات متواصلة لحاجة الحرب الضروس بين البلدين إلى وقودها من الجنود، في وقت يفرض التجنيد حينذاك على الأفراد مدة خدمة عسكرية أقصاها (٣ سنوات) بالنسبة لغير المتعلمين، ومع ذلك أوقف التسريح من الخدمة الى أشعارٍ آخر أمتد فيما بعد إلى ما بعد نهاية الحرب(الخزرجي، ٢٠١٤، ٢٨٨)، أي هي تقترن بالموت والفناء والنظام الاستبدادي، أي أن التجنيد الإلزامي في النص يتحول إلى نوعٍ من أنواعِ العنفِ السياسي الذي تُمارسهُ السلطة، ((استخدام القوة أو التهديد باستخدامها لتحقيق أهداف سياسية من قبل الحكومة أو المواطنين)) (هياجنة، ١٩٩٩، ١٩٨)، وهو أمر يُهدد السـلام والاستقرار والأمن والطمأنينة داخل الدولة.

وفي رواية (أسد البصرة) يستحضر الكاتب الخدمة العسكرية الإلزامية، إذ نجد في النص أن الفـــرار من الخدمة الإلزامية يؤدي إلى أشد العقوبات، لا سيما وأن الخدمة الإلزامية تقترن بمأساة الحروب، وتقترن بحدث سياسي هائل، هو احتلال العراق للكويت من قبل الجيش العراقي وتحشد التحالف الدولي لقصف الجنود العراقيين:

((ما أن اجتاحت وحدات الحرس الجمهوري الكويت في ٢ آب ١٩٩٠، وبدأت القوات الأمريكية بالتدفق إلى الأراضي السعودية حتى أطلقت الحكومة النفير العام، واستدعي في إثره جميع الجنود المسـرحين عقب الحرب العراقية الإيرانية باشـرت مفارز الانضـباط العسـكري

والرفاق الحزبيين بتصـــيد المتخلفين والفارين من خدمة العلم وإرســـالهم إلى الجبهة بالقوة)). (جبيلي، د.ت، ١٥١)

النص الذي بين أيدينا لا يكتفي بتوثيق حدث تاريخي، بل يخلق خطاباً مضـــاداً للخطاب الرســـمي الذي كان يروج للحرب باعتبارها "قادتنا". عبر تفكيك جزيئاته (النفير، الاســـتدعاء، المطاردة، التحول إلى رقم)، نجد أن الكاتب يحول الضـــحية الفردية إلى قضـــية جمعية، والحدث السياسي إلى تراجيديا إنسانية. النص، بذلك، يؤرخ لـــ"المقهورين" في التاريخ، أولئك الذين دفعوا الثمن دون أن يُسألوا عن رأيهم، محولاً إياهم من مجرد إحصائيات إلى شخوص درامية تدمي. وسيلة للسيطرة والإخضـاع، لا مجرد واجب وطني، لا أن تمتد لتشمل الخدمة في حربين. هنا يتحول الجندي من مواطن ذي إرادة إلى مجرد رقم في آلة الحرب، يُســاق بالقوة إلى الجبهات لخدمة أهداف سياسية عليا لا يملك التأثير فيها. المرجعية السياسية في النص السابق تكشف هذه البنية السلطوية التي توظف التجنيد الإجباري لتكريس نفوذها، مسلطة الضوء على الوجه القمعي للحكومة والحزب حين تضع بقاءها وأطماعها فوق حياة الأفراد ومصائرهم ورغباتهم مما يعطي النص طابعًا درامي مأساوي.

تتضح شخصية مسعود التي تصبُ الحكومة وتتحدث بجراءة منقطعة النظير وما في خطاب هذه الشخصية من اتكاء على حدث سياسي، يُمثلُ ثورةً على القيودِ التي تفرضها السلطة:

((" ردّ مســعود " أنا هنا لأموت: خنقاً، حرقاً، شـنقاً، في الجبهة، المهم أنَّ ثمة موتٌ يتربَّص بي. إذن أنـا موجود مع أنَّ وجودي هذا لا يعدو عن كونـه ســـلْكاً مربوطاً بـالموت وبالقنبلة في جيبي! هذه القنبلة، تكاد أن تنفجر، ومن دواعي سرورها أن تفعل ذلك، لكن هذا لن يفضـي إلى الزعيق مثل مجنون ملَّ جنونَهُ واشـتاق إلى الموت. بصـراحة: لسـتُ مشـتاقاً للموت، كما لســـتُ معنياً بالعالم بقدر ما أنا معنيّ بهذا الوطن الجاحد، أبونا الذي شـــرّدَنا)). (جبيلي، د.ت، ٢٤)

نلتمس في النص شخصيّة ناقمة على الوضع السياسي العام، وإن كان النص يمثل لونًا سـياسـيًا ما إلا أنه يكشـف عن المجتمع وبنيته وتوتره في تلك الحقبة، على أسـاس أنَّ ((كل ما يحدث في الحياةِ بمستوياتها المختلفة من اجتماعية واقتصادية وثقافية، يصبُ في مجرى السياسة العميق ويعكس تياراته)) (فضـل، ٢٠٠٣، ١٥)؛ لينتج عن هذا تصـوير المجتمع وما في أعماقهِ من نقمٍ، حتى لو كان هذا الموت الذي يحيط بمســـعود مختلف الأشـــكال والأوجه والتيارات، فشخصية مسعود تأتي مرتبكة غاضبة وفيها نقمة، وسرعان ما تتدفق ما في نفسه الشخصية التي لا ترغب في الموت والفناء، إلا أنهُ معني بالوطن الجاحد الذي سيشردهم ويُورثهم الموت. المشهد إذن ينطوي على مرجعيةٍ ســياســيةٍ عميقة تقدس الوطن الذي ينحو نحو الموت، النص بذلك لا

ينتقد فقط لحظة الاسـتدعاء، بل يتنبأ بلعنة التاريخ التي سـتحل على الجميع وهذا ما سـنراه في صـــفحات الرواية عندما تصـــير الأحداث انعداماً المتمثلة بالاحتلال الأميركي البريطاني نتيجة السياسة؛ كونه يقوم على بنية مرجعية سياسية صنعت الخراب والدمار:

((كانت الحرائق في المدينة ما يزال الدخان يتصـــاعد منها في المباني والمدارس والدوائر والمساجد، والسيارات العسكرية المحترقة، وهناك رائحة الجثث التي تستثير الطائر في السماء تنبعث من المستشفيات والأنهار وبراميل القمامة وعلى الأرصفة المثلومة التي رأيتُ أخي واقفاً على أحدها أمام أحد البنوك الكبيرة، وكان مسـنداً ظهره على قاعدة " شـاعر الحب والموت والمطر: بدر شـاكر السـياب " وبدا من وقفته وملامح وجهه الأسـمر أنه ينتظر أحداً، قريباً منه ثمة جثث مفرومة تحت سـرفة دبابة أخذت النيران تحرق في مفاصـلها، فيما كُومَتْ إلى جانب تلك الجثث ثياب عسكرية وأحذية، وكان أخي ينظر بعينيه الخائفتين إلى كلاب هزيلة انشـغلت في عراك دام حتى الموت في حين راحت جراؤها تعلك بأنيابها الصـغيرة اللحم البشـري قبل فساده)). (جبيلي، د.ت، ٧٥)

في النص يتدافع الخراب في مدينة البصـــرة نتيجة الاحتلال، نجد فيه تدافع الصـــور وتكثيفها بتفاصـــيل واقعية، عبارة عن حرائقِ مســـتعرةٍ تؤدي إلى دخانٍ من الدوائر والمســـاجد والطرق، في إشارةٍ إلى الخرابِ الذي يعمُّ المكان كله، ثم رائحة الجثث النتنة وما يفعل في النفس، ويستمر العرض لهذه الصور القاسية التي تشهدها المدينة الحافلة بالجثث. هذه الصور المتتابعة في النص السابق تظهر العنف المتأتي من السياساتِ العشوائية التي ارتكبتها حكومة ما قبل عام ٢٠٠٣م، وكيف ألقت بظلالها على المدينة، لتصنع بسياستها عنفًا يؤدي إلى هجومٍ خارجي وفي نهاية المطاف يمكن القول أن الجانب النفسـي (رعب، صـدمة، عجز) يصـبح النقد السـياسـي مكتوباً بلغة الجروح والروائح.

وفي رواية (تذكار الجنرال مود) تظهر المعلمة التي تحمل النفس الحزبي:

((عندما كان في الصف الأول الابتدائي، كانت معلمة القراءة الحزبية التي ترتدي بدلة كاكية تقرص خديه حتى يتورما، وأحياناً تخدشـــهما بأظفارها الطويلة، المطلية بألوان العلم العراقي الأحمر والأســـود والأبيض، والأخضـــر لون النجوم الثلاث، التي كانت ترمز للوحدة والحرية والاشـتراكية. كان بوسـع "كريم" أن يدرك في تلك السـن المبكرة، أن ما تقوم به معلمة القراءة لا يمكن أن يكون نوعًا من التحبب أو التدليل، ما دامت تفعل ذلك بمزيد من القسـوة)). (جبيلي، د.ت، ١٩-٢٠)

يسـتحضـر النص مشـهدًا طفوليًا بسـيطًا من الصـف الأول الابتدائي من طفولة كريم، الشـخصـية الناقمة والمتمردة على حكم النظام، يُوظف مشـهد الطفولة كأداة لاسـتدعاء الأحداث

السياسية وتكثيف المرجعية السياسية المرتبطة بفترة حكم حزب البعث في العراق عبر استدعاء رمزية العلم وخلق صورة المعلم المنتمي للحزب والمتحول إلى هراوة بيد الحزب لا تربوي؛ لتتحول المعلمة من شـخصـيَّة تربويَّة محملة بالمُثل العليا إلى رمز أيديولوجي يرتدي الزي الكاكي الذي يحيل إلى الطابع العسكري لسلطة النظام البعثي، فيما تتحول أظافرها المطلية بألوان العلم العراقي والنجوم الثلاث إلى علاماتٍ بصـرية مليئة بالسـيميائيات والإشـارات، إذ تأتي مشـبعة بالخطاب القومي الحزبي الذي يرفع شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية. هذا التداخل بين تفاصيل الجسد (القرص والخدش) اللذان ينفران من المعنى الحقيقي لمجاز يصـــور الخدش الحزبي، والرموز الوطنية، يعكس كيف تغلغلت السياسة في أدق تفاصيل الحياة اليومية، حتى في مشهد يفترض أن يكون بريئًا كالعلاقة بين معلمة وتلميذ.

النص يوظف المرجعية السياسية لا بِعدها خلفية صامتة، بل بوصفها عنصراً فاعلاً يفسر القسوة الممارسة، إذ يلتقط السارد التناقض بين الشعار والممارسة، فيكشف للقارئ أن الوطنية المؤدلجة قد تصبح أداة قمع بدل أن تكون مصدر حماية. إن استدعاء الأحداث السياسية هنا لا يقتصـــر على ذكر الرموز والشـــعارات، بل يشـــتغل على إعادة بناء المناخ النفســـي والاجتماعي لتلك الحقبة، مُبرزًا كيف كان الخطاب الحزبي يتجسد في ممارسات سلطوية تتخفى تحت قشرة تربوية، مما يمنح النص بعدًا نقديًا يعرّي آليات السيطرة الناعمة والخشنة التي كانت تمارسها السلطة عبر مؤسسات التعليم.

❖ **قضية الأكراد:**

شـــهد العراق الحديث خلافًا تاريخيًا بين الســـلطة المركزية في بغداد، وبين الأكراد في شمال العراق، وهذا الخلاف لم يقتصر على حقبة أو حكومة من الحكومات، بل بقي متتابعًا إلى يومنا هذا، لقد برزت القضية الكردية على الساحة الدولية كأحد القضايا الكبرى التي تُشغل الرأي المحلي والرأي العام العالمي، التي تهدد الأمن والسـلم في منطقة (الشـرق الأوسـط)، فقد بدأت القضية الكردية منذ زمن طويل بالجغرافيا وتعمقت بالتقسيم، والشعب الكردي هو الشعب الوحيد في العالم بهذا الحجم يعيش على أرضهِ التاريخيةِ كوردستان منذ آلاف السنين ليس محروماً من كيانه المستقل فحسب، وإنما زاد على ذلك عناية العالم بهذه القضية، لاسيما أن الشعب الكردي يعيش في ثورةٍ دائمةٍ، ويتطلع إلى نيلِ حقهِ في تقريرِ مصـــيرهِ أُســـوةً بالشـــعوب الأخرى في العالم،(عيسى، ٢٠٠٥، ٧) إلا أن أسبابًا كثيرة منعت استقلاله؛((لأنها تتقاطع مع معادلات داخلية وخارجية شديدة الحساسية، تشمل قضايا السيادة الوطنية، والهوية، ومكافحة الإرهاب، والمصالح الجيوسياسية للقوى الإقليمية والدولية)).

والرواية العراقية لم تهمل هذا التاريخ السـياسـي الذي يعدُّ مادةً مشـوقةً للكاتب الذي يُريد نسج حكاية مشوقة.

وفي رواية (المشـطور... سـت طرائق غير شـرعية لاجتياز الحدود نحو بغداد) الرواية التي يُحاول المشطوران دخول العراق من ستِ طرقٍ مختلفة وفي هذه الطرق يعرض لأيديولوجيات مختلفة، وانتماءات سـياسـية متعارضـة، واسـتدعاء تاريخ سـياسـي مع الكرد والكويت والسـعودية والأردن، ومن ثم اتـكـاء على المرجعيةِ السياسيـة، مثل: تطرقه لمخيمات النازحين عندما يلجأ النصفان لهذا المخيم:

((هناك في كردستان ارتاب بعض أفراد البيشمركة بالنصفين اللذين كانا يتعاطيان مع الأحداث كما لو أنهما نازحان فعلاً. ومنذ أن اسـتجوبوهما للمرة الأولى، وهما يخططان للخروج من مخيم النازحين. كانوا يرسـلون في طلبهما بشـكل يومي، على مدى الأيام السـبعة التي قضياها في ذلك المخيم، ويوجهون لهما أسئلة لا يألفها سوى الغرباء. ما اسميكما؟ هل أنتما نازحان؟ أين تسكنان؟ هل أنتما إيزيديان))؟ (حبشي، ٢٠٠٦، ٧٢)

النص يُحيل إلى أزمةٍ سياسيةٍ حادة، مباشرة تشير إلى مرحلةِ النزوحِ الواسع من المناطق الغربية في العراق إبان سيطرة عصابات تنظيم داعش الإرهابية وتهجير المحافظات الغربية، حين أضـطر المدنيون، ومعهم النصـفان اللذان مكثا في المخيم أيامًا، إلى التوجه نحو كوردسـتان طلبًا للأمان، لكنه يكشـف في الوقت ذاته عن اصـطدام هؤلاء النازحين بسـلطة ميدانية تمثلها قوات البيشـمركة، وهي سـلطة عراقية تتحرك بواسـطة مرجعية سـياسـية وأمنية متأثرة بإطار أيديولوجي قومي كردي، ينظر بحذر وريبـة إلى كل وافد من المنـاطق الغربيـة ذات الغـالبيـة العربيـة التي ارتبطت في الخيال الجمعي الكردي آنذاك، بسيطرة تنظيم داعش أو التعاطف معه. الاستجوابات اليومية التي تعرض لها النصـــفان كونهما وافدان يثيران الريبة، والأســـئلة المتكررة عن الهوية والانتماء والمكان والدين: ((هل أنتما نازحان))؟، ((أين تسكنان))، ((هل أنتما إيزيديان؟)) لم تكن محض إجراءات أمنية، بل انعكاس مباشـر للتوتر بين أيديولوجيتين تاريخيتين وصـراع سـياسـي قديم: الأولى عربية سنية من مناطق غربية وُصـمت بارتباطها بداعش، والثانية كردية قومية ترى نفســـها حامية لحدود الإقليم من خطر هذا الامتداد. المخيم هنا يتحول من فضـــاء إغاثي إلى مســـاحة فرز عرقي، إذ تتجلى الهيمنة الأيديولوجية على ســـلوك الجنود في صـــورة من الريبة المسـتمرة، فيُصـبح النازح العربي القادم من مناطق داعش مُحاصـرًا بخطاب يُشـكك في براءته، فيما يعكس الجندي الكردي موقفًا تَشكّل في سياق صراع طويل مع هذا ((الآخر)) العربي. بهذا، يكشف النص كيفية تغلغل المرجعية السياسية في تفاصيل الحياة اليومية، وتُعيد تشكيل العلاقة بين الضـــحية والمســـتقبل له، في ظل تاريخ من التوترات القومية والدينية، وهذا يُبرهن كيف أن

خطاب الرواية ((لا تفعل شـيئًا سـوى أن تُعيد إنتاج العلاقات الاجتماعية والصـراع الإيدلوجي والثقافي على المستوى الفني)). (الحمداني، ١٩٩٠، ٥١)

في روايـة (الاسـم على الأخمص) تطرق الراوي إلى مختلف الحركـات الأيـدلوجيـة والسياسية التي شكلت الوعي عند الأحزاب السياسية مثل الشيوعية والحركة الكردية والقوميَّة:

((لا يتذكر كوليا آخر مرة بكى فيها. فطوال فترة مكوثه في دار الأيتام لم يذرف دمعة واحدة. حتى عندما أودعه والده في تلك الدار الواقعة في شـارع غوركي التاريخي، حيث يقف هناك تمثال بوشـكين بمواجهة سـينما روسـيا منذ عام ١٨٨٠، وذهب إلى القتال في جبال كردسـتان العراق لم يبك، رغم أن هناك سـبعة أطفال عراقيين آخرين مقاربين له في العمر، تركتهم أسـرهم الشـيوعية أيضًـا ظلوا يجهشـون بالبكاء على مدى ثلاثة أيام. اثنان من أولئك الأطفال فقط تم اسـتعادتهما من قبل أسـرهم الهاربة من جحيم الحرب بعد سـنتين، في حين لم يُسـأل عن البقية، لاحتمالين، فإما أن آباءهم وأمهاتهم قُتلوا في المعارك، أو أنهم أهملوهم عمدًا وأصبحوا طي النسيان)). (جبيلي، د.ت، ٢٨٦)

النص يتكئ إلى مرجعيةٍ سـياسـيةٍ عميقة تتمثل في الحرب المسـتمرة مع الأكراد والصراعات الأيديولوجية والقومية التي شكلت تاريخ العراق الحديث، إذ يعكس تجربة كوليا وأقرانه من الأطفال الذين تُركوا في دار الأيتام نتيجة النزاعات المسلحة والانقسامات السياسية ليغادر أبوه إلى الحرب مع الأكراد، لا سيما بين النظام المركزي البعثي والأحزاب الشيوعية الكرديَّة، مما يعكس تداخل الصراع السياسي مع واقع إنساني مأساوي.

ذكر دار الأيتام في شارع غوركي التاريخي مع تمثال بوشكين وسينما روسيا يُشير إلى التأثير الأيديولوجي للشيوعية في تلك المنطقة، بينما ترك الأهالي أطفالهم هربًا من ويلات الحرب أو بفعل القتل في المعارك، أو ترك القصـة من دون ردم أو نهاية لمعرفة مصـير الآباء، يعكس القسوة التي فرضها الصراع السياسي على العائلات والمجتمع. هذا الحدث السياسي، المتمثل في حرب الأكراد والصـراع بين الأيديولوجيات، ينعكس بشـكل مباشـر على واقع الأطفال الذين يصبحون ضحايا للسياسات الصراعية، فتتفكك الروابط الأسرية وتتبدد الحماية الاجتماعية، مما يجعل النص مثالًا على كيف أن المرجعية السياسية ليست فقط حدثًا تاريخيًا يفرض نفسه ثم يغادر المجتمعات، بل قوة تؤثر بعمق على المصـير الإنسـاني في النص الأدبي؛ فالمرجعية السياسية تُشكل حياة الإنسان المعاصر، ولاسيما إذا كان مجتمعًا تقليديًا مثل العالم العربي –كما يُطلق عليه كمال أبو ديب– حينها تؤثر وتستولي على الأفراد. (أبو ديب، ١٩٨٥، ٥٢)

❖ **غزو الكويت والانتفاضة الشعبانية:**

من أبرز الأحداث التي شكلت العراق الحديث وأدت إلى سقوط النظام السياسي البعثي الأسبق هي غزو الكويت، ثم الانسحاب المر المضطر للجيش بعد الانكسار المؤلم أمام قوات التحالف، ثم ما قام به الجنود من تمردٍ ضد النظام السابق عُرفت بالانتفاضة الشعبانية، فغزو الكويت كان قراراً استراتيجياً عالي المخاطرة مبنياً على تقدير خاطئ للتوازن الدولي، فالهزيمة العسكرية كشفت هشاشة البنية السياسية للنظام.

الانتفاضة الشعبانية كانت نتيجة طبيعية لتراكم القمع والهزيمة، لكنها فشلت بسبب غياب التنظيم والدعم.

إن ضياء جبيلي في معظم رواياته استند إلى هذا الحدث السياسي وذكره واستثمره في إدانة النظام السابق. في نص من رواية (المشطور) يُشير إلى جهة الكويت ومحاولة دخول النصفان إلى العراق من جهتها، وفيها استذكار للغزو العراقي ثم الهزيمة والانكسار ثم الانتفاضة التي كادت تودي بالنظام السياسي:

((وحدث بعد أعوام، في ليلة من ليالي آذار الباردة، بعد حرب الخليج الثانية، وتحديداً أثناء انتفاضة ١٩٩١ ضد نظام صدام، كنت برفقة ثلاثة من أصدقائي. وكنا نجلس حول جذع نخلة مشتعل، قريباً من النهر. وكان هناك عيارات نارية بالكاد يسمع صوتها في الجوار، فكل شيء مُسيطر عليه تقريباً من قبل الثوار، كما كانت تشيع ذلك إذاعة العراق الحر على الموجة القصيرة، بين فترة وأخرى)). (حبشي، ٢٠٠٦، ١٤٤)

النص السالف يسترجعُ النص حدثًا شخصيًا لكنّه مؤطر بمرجعية سياسية صريحة، ويتماهى معها وكيف أن الذاكرة تحتفظ به لأهميته؛ إذ يُحيل الحدث الذي يرويه السارد إلى الانتفاضة الشعبانية في شهر آذار من سنة ١٩٩١م، وهي الحركة المسلحة الواسعة التي اندلعت في جنوب العراق وشماله عقب هزيمة وانكسار الجيش العراقي في حرب الخليج الثانية وانسحابه من الكويت وكادت تُسقط النظام بعد انتفاض (١٤) محافظة من مجموع (١٨) وفي طورها آنذاك للتزايد(دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٥، ٩٥). هذا السياق التاريخي يمنح السرد ثقله السياسي عبر الاتكاء المرجعي، فالانتفاضة كانت نتيجة طبيعية لتلك الهزيمة وانكساره بسبب قرارات (القائد الضرورة)، لتكون الخسارة العسكرية، وما صاحبها من انهيار في المعنويات وتفكك نسبي للقبضة الأمنية.

يتحول النص في المكان– الجلوس حول جذع نخلة مشتعل قرب النهر– إلى صورة مكثفة لوضع العراق آنذاك؛ دفء مؤقت وسط برد سياسي وعسكري، ومشهد يومي تحت ظلال حرب وانهيار. الإشارة إلى ((الثوار)) و ((السيطرة على الوضع)) تكشف عن لحظة انتشاء

بالانتصـار المؤقت الذي جاء بعد غفلة السـلطة والحزب وخسـاراتها ما بعد حرب الخليج قبل أن تُعيد نفسـها فيما بعد، بينما حضـور ((إذاعة العراق الحر)) على الموجة القصـيرة يُمثل بعدًا دعائيًا وإعلاميًا يُعـزز خطاب المرجعية السياسية المُعارضة للنظام والحزب الحاكم، ويوجه إدراك الأفراد للواقع. حتى العيارات النارية التي ((بالكاد يسـمع صـوتها)) تومأ إلى فترة هدوء نسـبي بعد اشتباكات عنيفة، لكنها أيضًا تذكير أن هذا الهدوء قائم على توازن قوى هش. بهذا، يُظهر النص كيف تشتبك التجربة الفردية مع لحظة تاريخية مشحونة، وتكشف المرجعية السياسية عن دورها في تفسـير الأحداث وإعادة صـياغتها في الذاكرة، بوصـف الانتفاضـة الشـعبانية امتدادًا طبيعيًا لهزيمة العراق في الكويت، وتحولها إلى شـرارةٍ فتحت المجال أمام تمرد داخلي واسـع، وهذا ما تفعلـه المرجعيـة الثقـافيـة في النص الأدبي، لتكون هي ((الواقع الحي والمعيش خـارج النص المتعلق بالحياة الاجتماعية والتقاليد والأعراف والحياة السياسية والاقتصادية وغيرها)). (حسين، ٢٠١٦، ٩)

في رواية (الاسم على الأخمص) تظهر شخصيَّة نعيم وهي تهرب من الكويت في رحلة شـاقة ميتة، وانبثاق الانتفاضـة الشـعبانية في مشـهدٍ مُكررٍ في روايات (ضـياء جبيلي)، ولكنهُ يعكس تأكيده على الاتكاء التاريخي والبنية السـياسـية لفهم ما بعد تلك الوقائع من تحولات وكوارث:

((كان نعيم مع الحشود الكاكية المطرودة من الكويت، على طريق الموت، بين البصرة وسفوان. شاهد هناك كيف يموت الجنود بطريقة جماعية، ويُلقون بالنابالم الأمريكي ويتناثرون إلى أشـلاء بالقنابل العنقودية التي كانت تلقيها طائرات الشـبح وأف -١٦ على الأرتال العسـكرية، بالرغم من سـريان مفعول إطلاق النار الذي وقعته القيادة العسـكرية العراقية مع الجنرال شوار تسكوف في خيمة صفوان. كان يتوقع الموت في أي لحظة، لكنه أفلت منه بشق الأنفس ووصل إلى ميدان سعد بن أبي وقاص بسلام. هناك، حيث انطلقت أولى الرصاصات ضد نظام الحكم، أطلقها أحد الجنود المحبطين، العائدين من الكويت من بندقيته، باتجاه تمثال صدام حسين البرونزي الشاخص وسط الميدان)). (جبيلي، د.ت، ٤٣)

يتكئ النص على مرجعيةٍ سياسيةٍ واضحة من خلال استدعاء أحداث تاريخية مفصلية في العراق، وهو انسـحاب العراق من الكويت سـنة ١٩٩١م ومن ثم دخول الجنود الى البصـرة فأعلنوا التمرد والانتفاضـة. إذ يصـور المشـهد مأسـاة (طريق الموت) بين البصـرة وسـفوان أثناء انسـحاب الجيش العراقي من الكويت بعد حرب الخليج الثانية، ويبرز اسـتعمال أسـلحة محرمة كالنابالم والقنابل العنقودية، التي تسـببت في مقتل العديد من الجنود على الرغم توقيع اتفاق وقف إطلاق النار، مما يعكس ازدواجية الخطاب السياسي الدولي وانتهاك الاتفاقات. كما يوضح النص

التحول النفسـي والسـياسـي للجنود العراقيين الذين عادوا خائبين من الكويت تحت وقع النيران والأسلحة المحرمة دوليًا، وهؤلاء الجند المحبطون أنفسهم الذين أطلقوا أولى رصاصات الانتفاضة الشعبانية في ميدان سعد بن أبي وقاص تجاه تمثال رئيس النظام السياسي البعثي آنذاك، مؤكداً أن الهزيمة والانكسار العسكري كانت الشرارة الحقيقية لتمرد شعبي واسع. هذا السرد يُوظف الحدث السياسي حاضنة للحكاية، ليُعيد بناء الواقع السياسي والاجتماعي من منظور نقدي يكشف آليات القمع والتسلط في النظام السابق والهيمنة الدولية، فيتحول النص إلى مثال حي على السرد المرجعي الذي يستند إلى أحداث واقعية سياسية، وليكشف عن طبيعة السلطة وتداعياتها على المجتمع، مما يمنح النص قوة نقدية وموثوقية تاريخية متماسكة عبر الاتكاء على الواقع.

في رواية البطريق الأسود يتعرض لخيمة سفوان المذلة وخرق الاتفاقيات السياسية، ولكن بطريقة أكثر سخريَّة:

((هل سبق لك أن سمعت بطريق الموت؟ بإمكانك أن تسأل جورج بوش، بوش الأب وليس البيبي، ليخبرك كيف خرقت الإدارة الأمريكية بنود اتفاق خيمة صـفوان وارتكبت مجزرة بالجنود العراقيين المنسحبين، عندما ألقت على آلياتهم أطناناً من القنابل العنقودية والمقذوفات الحارقة، فتفحمت جثث الكثير منهم، في حين تناثرت أشلاء وجثث الآخرين في الصحراء، كما تناثرت من قبل جثث الهنود الحمر على جانبي طريق الدموع)). (جبيلي، د.ت، ٣٨)

يقوم النص على أبعاد واتكاء مرجعي سياسي إلا أنه يبدو عميقًا ومحملًا برؤى أكثر دقةً، يُناقش هيمنة الغرب وغدر المستعمر وكيف أن أمريكا والآخر الغربي لم يصفُ قلبه تجاه العرب؛ فالنص هذا يستدعي مرجعيَّة سياسية مرتبطة بحرب الخليج الثانية وما تلاها، إذ يوظف الكاتب حدث (طريق الموت) على أنه مجزرة ارتكبتها الإدارة الأمريكية بحق الجنود العراقيين المنسحبين، رابطًا ذلك باتفاق خيمة صفوان الذي كان يفترض أن يؤمّن انسحابًا آمنًا. في ضوء المقارنة التاريخية مع إبادة الهنود الحمر على (طريق الدموع)، يستدعي النص إرث العنف الإمبريالي المتكرر، كاشفًا عن بنية خطابية تربط بين الماضي الاستعماري والحاضر العسكري الأميركي. هذه الإحالة التاريخية المزدوجة تمنح المشهد أبعادًا أوسع من لحظته الآنية، لتضعه من ضمن سياق متصل من ممارسات القوة العظمى في تدمير الآخر وإقصائه، وهو ما يعزز دلالة العنف الممنهج كأداة سياسية تتجاوز حدود الزمان والمكان. إلى جانبِ ذلك، يظهر الحس الساخر في ذكر (جورج بوش، الأب وليس البيبي)، كنوع من السخرية التي تُقلل من جدية الخطاب الرسمي الأمريكي، وتُظهِر التكرار المتعمد للسياسات العدوانية نفسها عبر الأجيال، وكأن العنف والإرهاب السياسي سمة وراثية في هذا الاسم، مما يُضيف بعدًا نقديًا حادًا يفضح ازدواجية المعايير والنفاق السياسي في الخطاب الغربي الرسمي؛ فالنص السالف مُتعدد الدلالة

ويُشــرع الباب أمام تأويلاتٍ كثيرة ونســتطيع تصــنيفه كنوع من كتابةِ ما بعد الكولونيالية(ما بعد الكولونيالية: وهي نظرية نقدية شهيرة، تُشير إلى نوع آخر من التحليل الأدبي ينطلق من فرضية أنَّ الاحتلال التقليدي بصـــورته العســـكريَّة قد انتهى وأن مرحلة من الهيمنة، تســـمى أحيانًا المرحلة(الإمبريالية) أو (الكولونيالية)، كما عربها بعضـــهم، قد حلت وخلقت ظروفًا مختلفة تستدعي تحليلًا للنصوص الأدبيَّة من نوع معين، وقد بدأها إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق، وتبحث في كتابات ترى في الاحتلال الذي يسمونه عرضــاً الاســتعمار ســبب بلاء الشــعوب. (الرويلي، ٢٠٠٢، ١٥٨) التي تعتمد على الخطاب المضاد وخطاب الرد.

❖ **الحكومات بعد سنة ٢٠٠٣م:**

وفي نصٍ من رواية (المشطور) التي تغرق في فكرة الحدود والتجارة غير الشرعية على هذه الحدود نرى التجارة غير المشروعة وسيطرة الأحزاب عليها:

((على الرغم من الزحام الذي يشهده المنفذ، إلا أن هناك من كان مهتماً بأمر شاحنة الدجاج المجمد الذي احتكرت استيراده تقريباً، بالإضافة إلى اللحوم الحمراء، بعض الشركات التابعة للأحزاب الحاكمة والمزكاة من قبل رجال الدين. وكما لو أن هناك توصية خاصة، فسح المجال للشــاحنة بالوصــول إلى منطقة العبور من دون أن تضــطر إلى الانتظار حتى يحين دورها)). (حبشي، ٢٠٠٦، ٩٦)

يوظف جبيلي في هذا النص المرجعية السياسية بوصفها أداة رئيسة وبؤرة مركزية في كشف آليات سيطرة الأحزاب السياسية الحاكمة على الموارِدِ الحيويةِ في العراقِ بواسطة عيني النصفين؛ لتتحول شاحنة الدجاج المجمد، ومعها اللحوم الحمراء، إلى رمز لسوق محتكر تديره شركاتٍ تابعة لتلك الأحزابِ ومحميةٍ بـــ(تزكية) من (رجال الدين) وما في مفردة تزكية من إحالةٍ لعراقِ ما بعد سنة ٢٠٠٣م، إذ سيطرت آنذاك (العمامة) الحزبية. هذا الاحتكار ليس مجرد نشاط اقتصــادي عابر، بل ممارســة ســياســية بامتياز، إذ تُســتغل الســلع الغذائية– التي تمس حياة المواطنين اليومية– كوسيلة لترسيخ النفوذ وإحكام السيطرة على المجتمع وخنقه.

النص الروائي الســالف يقتبس مباشــرةً من الواقعِ العراقي، الذي يشــهدُ منذ ســنوات عدة هيمنة واضـــحة للأحزاب على المنافذ الحدودية والجمارك، وتوجيه عمليات الاســتيراد بما يخدم مصـــالحها، وهو ما يظهر في تجاوز الشـــاحنة لطابور الانتظار ((كما لو أن هناك توصـــية خاصة)). بهذا التوظيف، ينجح النص الروائي في تحويل مشهد بسيط من الحياة اليومية إلى مرآة تعكس منظومة الفساد السياسي– الاقتصادي، إذ تتداخل السلطة الحزبية و(الدينية) في التحكم بالموارد، ويصبح الاقتصاد نفسه جزءًا من البنيةِ السلطوية التي تحكم البلاد، وتعيد إنتاج ذاتها

عبر أدوات السـوق والاحتكار، كاحتكار التُجار العراقيين للسـلع والبضـائع أيَّام الحصـار في التسعينيات:

((هؤلاء التُجار أذكياء ومحتالون، ألم يخلطوا الرمل بالطحين والبطاطا بالسـمن وباعوه لنا في أيام الحصار؟ أم أنك نسيت))؟ (حبشي، ٢٠٠٦، ٩٨)

يتكئ هذا النص على المرجعية السـياسـية عبر اسـتدعاء حدث سـياسـي مُحدد في الحصـار الاقتصـادي القاسـي الطويل على العراق في تسـعينيات القرن العشـرين، وهو سـياق سـياسـي واقتصـادي ترك أثرًا عميقًا في الذاكرة الجمعية للعراقيين. استدعاء هذا الحدث لا يأتي بشكل توثيقي جاف، بل عبر خطاب اتهامي موجه إلى التجار المحتالين الذين استغلوا الظروف الاسـتثنائية لزيادة أرباحهم، فخلطوا الرمل بالطحين والبطاطا بالسـمن وباعوها للمواطنين. هذا التوظيف السردي يربط بين سلوك الجشع الفردي والفساد البنيوي الذي ترعاه الأزمات السياسية، إذ يضـع القارئ أمام صـورة مركبة من تواطؤ رأس المال الطفيلي مع السـلطة أو على الأقل استفادته من انهيار منظومة الرقابة والقيم في فترات الأزمات.

اسـتدعاء الحصـار هنا يمثل إحالة مرجعية إلى لحظة مفصـلية في تاريخ العراق، حيث تلاقت المعاناة الشـعبية مع الانتهازية التجارية، وهو ما يجعل النص جزءًا مما يسـميه د. عبد الله إبراهيم ((انفتاح الرواية على مرجعياتها التاريخية بصـراحة))، أي السـرد الذي يوظف الماضـي القريب الحقيقي كأداة لفضـح البنية الأخلاقية والسـياسـية الحاكمة، وتنضـيد هذا الحدث الحقيقي جنب الواقعي. وبذلك، فإن الحدث المستدعى لا يكتفي بوظيفةِ الإشارةِ التاريخية والسياسية، بل اختراقٌ للبنية التخيلية عبر زج الحدث الحقيقي من دونِ أن يتخلى عن وظيفتهِ الدلالية، ليُظهر كيف أن الممارسـات التي نشـأت في بيئةِ الحصـارِ ما زالت تمتد في ثقافةِ التعاملِ الاقتصـادي والاجتماعي.

وفي رواية (سـاق الفرس) مرت حادثة اعتداء لعبير، إذ تتحول إلى قضـية عالمية، وهي حادثة اعتداء، مما يدفع الجيش البريطاني في البصـرة إلى قبول اللجوء الإنسـاني، هذا اللجوء يكمن فيهِ مرجعية سياسية:

((هذا ما أطلقت عليه الصـحافة البريطانية في عام ٢٠٠٦: قضـية عبير. قد أكون عانيت أكثر منها، لكن القضية كانت قضيتها، ربما لأنها أصغر مني عمراً، أو لاعتبارات أخرى ليس تأنيب الضمير أحدها، إلا إذا امتلكت دولة عظمى مثل بريطانيا تنتج الصواريخ المشعة، ضميراً عادلاً، بحيث تجعل من الطفولة العراقية المشعّة والمشوّهة قضيتها الكبرى)). (جبيلي، د.ت، ٧٣)

النص يوضـح حبكة الرواية الأسـاسـية، عبير والاعتداء عليها ثم لجؤها إلى بريطانيا– التي تحتل سـابقاً محافظة البصـرة في الأسـاس– وهو في هذا يسـتند إلى مرجعية سـياسـية مُعقدة تربط بين مأسـاة عبير واغتصـابها في ضـواحي البصـرة التي تناولتها الصـحافة البريطانية سـنة ٢٠٠٦م وبين تاريخ طويل من التناقضـات في سـلوك قوى الاحتلال الكبرى، ولاسـيما بريطانيا. فالروائي يُوظف الحادثة بوصـفها مثالًا على الانتقائية في صـناعة القضـايا الإنسـانية؛ إذ يأتي المُحتل بما يخدم الخطاب السياسي ويلمع صورته في الصحافة ويُهمل ما سواه، مهما كان الألم أكبر أو أعمق. وإذا وُضع هذا في سياق الاحتلال البريطاني للبصرة سنة ٢٠٠٣ م وما تلاه من ممارسات عنف وتعسف وإذلال بحق السكان، يتضح أن التعاطف البريطاني المعلن مع الطفولة العراقية ليس إلا محاولة لاحقة لتلميع وجههم القمعي وصورته المتمثلة بالسلب والقتل والاغتصاب والدمار وأحراق النخيل، وصـنع صـورة (القوة الإنسـانية) التي تسـعى لإغاثة من كانت بالأمس القريب ضـــحية لجنودها لطائراتها وصـــواريخها ودباباتها. بهذا المعنى، يتحول النص إلى نقد لسـياسـة إعادة تشـكيل الرؤية السـياسـية عبر أدوات الإعلام والإنسـانية الانتقائية، عندما تتقاطع صـورة الطفلة الضـحية مع مشـهد تاريخي أوسـع يُظهر كيف يمكن للاحتلال أن يُمارس العنف باسم السيادة، ثم يتنكر بقناع الرحمة لتخفيف وقع جرائمه في الذاكرة الجماعية.

في نصٍّ آخر يكشـف الكاتب عن مضـمر سـياسـي عندما تهرب سـليمة وعبير من المستشفى ويختبئان عند طبيبة في حيّ راقٍ:

((لن يفكر أحد بهذا الحي، قالت مطمئنة: إنه مليء بالمســؤولين الحكوميين الصاعدين، الذين أثرتهم فترة ما بعد سقوط النظام، أما السكان، فأغلبهم أثرياء، بعض المنازل تشـغلها مكاتب المنظمات حكومية ومدنية وأجنبية، إغاثة، صـحافة، شـركات تجارية، وبعض القنصليات، ومقار الأحزاب المحلية المتنفذة)). (جبيلي، د.ت، ١٣٢)

يسـتند النص على مرجعية سـياسـية مرتبطة بسـياقِ اختباء سـليمة وعبير في حي يتسـم بكونه ملاذًا آمنًا، ليس بفعل الصدفة أو الوضع العام، بل على العكس كان الوضع مضطربًا من واقع الاحتلال، ولكن لخصـوصـيته السـياسـية والاجتماعية؛ كونه يضـم مسـؤولين حكوميين صـاعدين، وأثرياء، ومقار منظمات محلية وأجنبية، وقنصـليات، وأحزاب متنفذة. هذا التوصـيف يعكس بنية نفوذ تجعل هذه الأحياء محمية من إجراءات التفتيش أو المداهمة، في مفارقة تكشـف انتقائية تطبيق السـلطة في مرحلة ما بعد سـقوط النظام والحزب البعثي السـابق. فغياب الرقابة الأمنية هنا ليس دليل استقرار، بل مؤشر على حصانة طبقة سياسية واقتصادية مرتبطة بشبكات السـلطة الجديدة، مقابل انعدام الأمان للفئات المهمشـة أو المعرضـة لبطش العشـيرة خارج هذه الدوائر المحصـنة. وبهذا، تصـبح المرجعية السـياسـية في النص أداة لفضـح كيف نشـأ التحول

السياسي جغرافيا أمنية غير متكافئة، تتيح للبعض حماية مطلقة، بينما يبقى الآخرون مكشوفين للخطر، وهذا ما تفعله المرجعية السياسية في النص الروائي، إذ تأخذ ((طابع الواقعية؛ لأنها حاولت فهم القضايا والنبش في الفساد السياسي وتجريد مضمراته)). (اللامي، ٢٠١٦، ١٠٦)

وبالنظر إلى امتداد الحدود العراقية الإيرانية فإن المأساة السياسية تكون كبيرة عبر التذكر التاريخي للحرب العراقية الإيرانية وما تعاني البصرة من آثار تلك الحرب الطاحنة إلى اليوم:

((كانت تلك البقعة الحدودية الملحية من أرض البصرة ميداناً للمعارك الشرسة والوحشية خلال الحرب، سقط فيها عشرات الآلاف من الجنود العراقيين والإيرانيين، حتى إنها تضم إلى الآن رفات الكثير من أولئك الجنود من كلا الطرفين، وما تزال ميدان اشتغال منظمة الصليب الأحمر التي ما زالت تبحث تحت الأرض عن ذلك الرفات للجنود المفقودين، إلا أن ثمة ما يعيق عملها على الدوام. تلك هي الألغام التي عجزت الحكومات المتعاقبة عن رفعها، بسبب مطالبة المجلس المحلي وباقي الجهات الحكومية ذات العلاقة كوزارة البيئة ووزارة البلديات وغيرها نسبة خمسة بالمائة من الأرباح التي يمكن أن تتحصل عليها شركة إزالة الألغام الراغبة بالتعاقد، وكأن هذه الشركة جاءت لتستثمر في بناء مدينة ألعاب وليس لرفع أكثر من عشرة ملايين لغم في البصرة)). (حبشي، ٢٠٠٦، ١٠١)

على الرغمِ من أنَّ النص ينقلُ مأساة بيئية وإنسانية خطيرة متراكمة من الحربِ العراقية الإيرانية إلا أن هذا الاسترجاع والتأمل في مشكلة إنسانية لم يخلُ من مرجعية سياسية جلية؛ فالنص ينهض على مرجعيةٍ سياسيةٍ واضحة، عندما يستدعي أحداث الحرب العراقية الإيرانية بوصفها خلفية مأساوية لصورة البقعة الحدودية الملحية والقاسية في البصرة، التي تحولت إلى ميدان معارك دمويَّة في تلك السنين أودت بحياة عشرات الآلاف من الجنودِ العراقيين والإيرانيين على السواء، ولم تزال تحتفظ برفاتهم إلى اليوم. هذا الاستدعاء للأحداث التاريخية وتوظيف المرجعية السياسية في رصد الأثر المستمر لتلك الحرب على المكان والإنسان يجعل للنص دلالات تأويلية عدة، مع الإشارة إلى إخفاق الحكومات المتعاقبة في إزالة الألغام، ما يكشف عن فساد إداري متجذر؛ فالنص يربط هذا الفشل بمطالبة المجالس المحلية والجهات الحكومية (وزارة البيئة، وزارة البلديات) بنسب مئوية من أرباح الشركات المتعاقدة، وكأن الأمر مشروع استثماري ترفيهي لا مهمة إنسانية لإنقاذ الأرواح. بذلك يدمج السرد بين التوثيق الواقعي عبر المرجعية السياسية والموقف النقدي، ليعكس كيف تداخلت المصالح الحزبية والبيروقراطية مع المآسي الوطنية، ويجعل من المرجعية السياسية إطارًا لفهم استمرار معاناة العراق ما بعد تلك الحرب، إذ

تتحول القضايا الإنسانية إلى ساحات فساد تشترك فيها جهات رسمية، ويُصبح التاريخ أداة لإدانة الحاضر.

❖ **المعارضة:**

في نص آخر يصور ضياء جبيلي شخصية معارضة عبر تاريخ العراق الحديث، وهو السيد النائب كما أُطلق عليه:

((وراء الكتب الحمراء الممنوعة، وترديد شـعارات وأهازيج مناوئة للحكم الملكي، مثل (نوري السـعيد القندرة وصـالح جبر قيطانها) كان قد رددها مع رفاقه أثناء مظاهرة في البصـرة تشـجب الحرب التي شـنتها بريطانيا وفرنسـا وإسـرائيل على مصـر في العام ١٩٥٦، فألقي القبض عليه، وأودع السـجن قبل أن يتم ترحيله إلى معتقل نقرة السـلمان في صـحراء مدينة السـماوة. كان عمر السـيد النائب في حينها سـتة عشـر عامًا، وكانت الأفكار الماركسـية واللينينية تتبلور في رأسه مع مرور الأيام، بمساعدة تركة عطية من الكتب التي أحرقت خالته نصفها، في محاولة فاشلة لمنعه من مواصلة الطريق الذي سلكه زوجها قبله، وانتهى به إلى السجن)). (جبيلي، د.ت، ٢٠٥)

يرتكز النص أعلاه على مرجعية سياسية عميقة تستند إلى جملة من الأحداث السياسية التي شكلت مشهد المعارضة في العراق منتصف القرن العشرين ولاسيما في نهاية الحكم الملكي وبداية الجمهوريات؛ إذ يستدعي مظاهرات البصرة سنة ١٩٥٦م الرافضة لحرب العدوان الثلاثي التي شنتها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر، وهو حدث يحفر في الذاكرة الوطنية ويعكس تصاعد الرفض الشعبي للاستعمار والحكم الملكي، وما أسهم هذا الحدث من زلزلة الفكر العربي والوعي. في ضوءِ الإشارةِ إلى الكُتبِ الحمراء الممنوعة والشعارات المناهضة للنظام مثل: ((نوري السعيد القندرة وصالح جبر قيطانها))، يُبرز النص نضال الشباب، ممثلًا بعمر السيد النائب، الذي بدأ يتبلور وعيه السياسي في تلك المرحلة عبر تبني الأفكار الماركسية واللينينية التي كانت شائعة آنذاك ومحل تقدير لمن يروم ميدان السياسة فيندد ويتظاهر ويقترب من فكر القومية ويطالب بالجمهورية، على الرغم من القمع والاعتقال والترحيل إلى معتقل نقرة السلمان، إذ تُجسد محاولة حرق الكتب رمزًا لمقاومة السلطة للأفكار التي تهددها. بهذا، تؤكد المرجعية السياسية في النص كيف أن الأحداث التاريخية ليست مجرد إطار وزمان للحدث، بل تشكل بئرة عميقة لفهم تطور الصراعات السياسية والاجتماعية في العراق، ويبرز صراع الأفراد والجماعات ضد الاستبداد والقهر، معتمدًا على استدعاء حقيقي للأحداث السياسية التي تعكس واقعًا تاريخيًا مشحونًا بالصراع والتغيير.

وفي رواية (أسـد البصـرة) نجد الشـخصـية الرئيسـة وهي ناقمة على الشـعارات وكيف اصطنعت السياسة خلفها:

((وبهذه المناسـبة أريد أن أنبهك إلى مسـألة مهمة، وهي أنك إذا سـمعت في طريقك مثل هذه العبارة (من زاخو إلى الفاو) التي تتردد كثيراً هذه الأيام، أو على الأقل هكذا تقال في القصائد والأهازيج والأغاني الوطنية البائتة والخطب السياسية الرنانة، فلا تصدقها أبداً، فكلها ترهات يتقول بها المطربون والشـعراء الشـعبيون وشـيوخ العشـائر وبقاقلة السـياسـة لدينا، ويريدون منها الدلالة الزائفة على الوحدة الوطنية البائسة واللحمة بين أبناء الشعب الواحد من الجنوب إلى الشمال)) . (صالح، ٢٠٠٣، ٦٠)

النص يرفض الشعارات الحزبية التي عرفها العراقُ منذ عهد طويل وتكرست بشكل هائل منذ بداية الجمهورية مع المد الشـيوعي والقومي الذي يحب الشـعارات والأهازيج، لينطلق النص من مرجعية سياسية تكشف انساقًا مُضمرة خلف الشعارات الوطنية مثل: عبارة (من زاخو إلى الفاو)، ولأن الكتابة الروائية تتكئ على((ظاهرة البعثرة لما هو خطي وأفقي في الواقع، وخلخلة منطق الثبات والسكون الذي يحكم أحداث الواقع المنجزة)) (صالح، ٢٠٠٣، ٦٠) يأتي الراوي هنا ليرى أن تكرارها في الأغاني والأهازيج والخطب الرنانة ليس تعبيرًا عن وحدة حقيقية في قار المجتمع؛ بل محاولة لتغطية هشاشة السياسة والحكومات وعجزها عن تحقيق تماسك فعلي. هذه التعابير التي تتكرر عبر الحكومات المتعاقبة بواسطة الشعارات، التي يوظفها المطربون والشعراء الشعبيون وشيوخ العشائر و(المرتزقة السياسيون)، تُحاكي آليات نظام الحكم السياسي البائد في صـــناعةِ صـــورةٍ زائفةٍ للوطنِ والقائدِ وحروبه، قائمة على العاطفة الجماعية لا على الحقائق الملموسة.

فالمرجعية السياسية هنا تكشف أن اللجوء إلى الشعارات ليس إلا وسيلة لفرض سردية وحدوية شكلية، في حين أن الواقع السياسي والاجتماعي يُعاني من انقساماتٍ وتشظٍ، ما يجعل النص بمثابة فضح للخطاب الدعائي الذي يُعيد إنتاج نفسه عبر أنظمة متعاقبة.

كما تؤكد الرواية على انتهاكات الحرس القومي بعد الانقلاب على عبد الكريم قاســم، ومحاولة تصفية كل المعارضين من دون عبء بالآخر:

((فهيلا تقول إن شـــقيقها مائير اعتقله الحرس القومي في عام ١٩٦٣، وأعدم بسبب انتمائه إلى الحزب الشيوعي العراقي، ثم تبعته زوجته نادية بفترة قصيرة، وكانت وقتها في الشهر التاسع من الحمل، وعلى ما يبدو، حسب روايتها، أنهم أمهلوها حتى ولدت طفلها، ثم اقتادوها إلى الإعدام)). (جبيلي، د.ت، ٤٤)

ارتكـب الحرس القومي عـدة مجـازر لمخـالفيـه، النص يتكئ على هـذا التـاريخ، على مرجعية سـياسـية ترتبط مباشـرةً بتاريخ العراق المضـطرب في سـتينيات القرن العشـرين الحافل بالانقلابات، حينما يوظف الكاتب شـهادة (هيلا) للكشـف عن الوجه الدموي للصـراع الأيديولوجي بين السـلطة البعثية والحزب الشـيوعي العراقي. اعتقال مائير وإعدامه، ثم إعدام زوجته نادية بعد إنجابها مباشـرة، يختزلان قسـوة الحقبة التي جعلت الانتماء السـياسـي سـببًا كافيًا للموت، حتى للنسـاء الحوامل، وبالتأكيد على النسـاء الحوامل يكشـف وجهًا حافلًا بالدموية التي غطت العراق الحديث. هذه المرجعية السياسية لا تأتي تأثيثًا للنص وحشدًا للأحداث، بل عاملاً مُحدداً لمصائر الأفراد، يتقاطع العنف المؤسسي مع المأساة الإنسانية في أبشع صورها. وبواسطة هذا المشهد، يفضـح النص كيفية تحوّل الولاء الحزبي أو الاختلاف الأيديولوجي في تلك المرحلة إلى مسـوّغ للقتل، مُظهرًا أن السياسة في سياقها القمعي لا تكتفي بإسكات الخصوم، بل تمتد لتفكك الروابط الأسرية وتستأصل الحياة ذاتها من جذورها.

❖ **الأقليات:**

في رواية (أسد البصرة) نرى الرواية تتطرق للمختلف (هو الذي لايطابق هوية الأغلبية، كالانتماء المذهبي أو الهوية الدينية أو اللغة) والآخر الديني والعرقي، عبر إنشـاء شـخصـية مختلف عليها مثل شخصية (أمل) ذي الأصول اليهودية، نقرأ:

((السبت يأتي بعده الأحد، ولم يغلب دهاء اليهودي سوى الأرمني، وقد حملت المقولة الأولى تلك النظرة المسـتقبلية طويلة الأمد لليهود بعد تهجيرهم من العراق، والتي تنبأت بإخراج المسيحيين بالطريقة نفسها التي كانت السبب وراء خروج الطائفة الإسرائيلية منذ عام ١٩٤١ وحتى آخر وثيقة خروج صـادرة من الوكالة اليهودية تنوي هيلا شـلومو التوقيع عليها في عام ٢٠٠٣. في حين يبين المثل الثاني ذو الطابع التجاري ربما عن الإمكانية الهائلة التي يمتلكها الأرمني في التغلب على ما اصـطلح عليه بالدهاء اليهودي، وهو مثل شـرقي يردده الأرمن في الشرق)). (جبيلي، د.ت، ٣٢)

يبنى النص على عدة أفكار ومرجعيات سـياسـية برهنها الراوي، منها فكر الآخر الديني والعرقي، ومنها الإقصـاء الذي مارسته الحكومات العراقية، إذ ينطلق النص من مرجعية سياسية تقوم على فكرة إقصـاء الآخر بوصفه نتيجة مباشرة للعنف السياسي الذي مارسته السلطات عبر التاريخ العراقي الحديث، مُستشهدًا بمثلين شعبيين عن اليهود والأرمن.

أما الأول فهو: **((السبت يأتي بعده الأحد))**، يُقرأ هنا تشـبيه اسـتشـرافي لمسـار التهجير القسـري، عندما يُشـير إلى أن ما حدث لليهود بعد سـنة ١٩٤١م حتى آخر وثائق خروجهم سـنة

٢٠٠٣م سيتكرر مع المسيحيين الذين هُجروا بكل عنف بعد احتلال العراق سنة ٢٠٠٣م بواسطة موجة عنف طالتهم، في تجسيد لنسق تاريخي من إفراغ البلاد من مكوناتها الأصيلة عبر أدوات سياسية قمعية.

أما المثل الثاني فهو: عن دهاء الأرمني الذي يغلب دهاء اليهودي، إذا يكشف جانبًا من التنافس بين الأقليات في بيئة مضطربة، لكنه في سياق النص يسلط الضوء على هشاشة وجود هذه الجماعات أمام سلطات قادرة على إقصائها متى شاءت ومع أيّ تغيير. بذلك، تتحول الأمثال الشعبية إلى مرآة لذاكرة جمعية مثقلة بالتهجير والعنف السياسي، وتصبح المرجعية السياسية أداة لقراءة التاريخ بوصفه سلسلة متكررة من عمليات الإقصاء الممنهج للآخر المختلف ولاسيما الديني.

في الرواية ذاتها يُشير الراوي إلى حدثٍ سياسيٍ كبير ظل صداه إلى اليوم، وهو قصف دولة العراق للكيان الصهيوني الغاصب بتسع وثلاثين صاروخًا:

((كانت الحرب بالنسبة لـــ (أمل) أشبه بالكون الذي أشار إليه هايدغر: كون قُذف فيه الإنسان وأُسلم للموت! بعد ستة أعوام، وتحيداً نهاية كانون الثاني ١٩٩١، بعد أن أفاق من أحد كوابيسه على صوت المذيع الإسرائيلي في القسم العربي في إذاعة صوت إسرائيل من أورشليم القدس، تساءل أمل: ماذا لو لم يغيروا صنفه في الحرب العراقية الإيرانية من الصواريخ إلى صنف المشاة الآلي؟ وألحقوه بعد ذلك بإحدى منصات إطلاق الصواريخ الباليستية في سنجار، ليكون بالتالي أحد أولئك الجنود الذين أطلقوا صواريخ سكود التسعة والثلاثين على إسرائيل؟ تخيل نفسه وهو يضغط على زر الإطلاق، ويرسل صاروخاً فتاكاً إلى تل أبيب، يراوغ صواريخ باتريوت الدفاعية ويفلت منها، لكنه يخطأ هدفه في النهاية، ليسقط على حي مأهول بالسكان)). (جبيلي، د.ت، ١٢٠)

النص السردي حافل بالعلاقات المتشابكة والمزج بين حدث سياسي استغله رئيس النظام السياسي السابق للترويج لنفسه عربيًا واستكمال استثماره لقضية فلسطين والعروبة والصراع العربي مع الكيان الصهيوني المحتل، عندما يستند إلى مرجعية سياسية تتقاطع فيها الحروب الكبرى مع البنية القومية للشخصيات، إذ يستدعي الكاتب حدث قصف العراق لذلك الكيان بتسعٍ وثلاثين صاروخًا في حرب الخليج الثانية، ويُوظّفهُ للكشف عن المفارقة العميقة في شخصية (أمل)، الذي يحمل إرثًا قوميًا معقدًا كون والده يهوديًا وهو يعيش في وطنٍ يكنُ الكراهية لكيانهِ.

هذا البعد يجعل تخيّله لنفسه جنديًا على منصة الإطلاق يضغط زر إرسال صاروخ إلى (تل أبيب) مُحمّلًا بتوترات نفسية وتاريخية متشابكة، عندما يتحول الحدث العسكري إلى صراع داخلي بين الانتماء القسري لآلة الحرب والخيط العائلي الذي يربطه بجزء من هوية العدو المعلن.

المفارقة هنا تتجلى في أن الحماســة الوطنية المتخيلة تصــطدم بجذر شــخصــي يربطه بالضــحايا المحتملين، ما يفضــح تناقضــات الخطاب الســياســي الذي يوظف العداء المطلق، متجاهلًا تعقيدات الانتماء والهوية. وهكذا تصــبح المرجعية الســياســية في النص أداة لكشــف الاختلاف بين الأفراد في الوطن من جهة الانتماء الديني وانعكاسه على الهوية الشخصية، لتكون هذه الحرب كارثة، لا من منظور الخسائر المادية فحسب، بل بواسطة تمزيقها للنسيج الإنساني والتجنيس للأفراد.

الخاتمة

يتضح من خلال هذا البحث أن المرجعية السياسية:

• تشكّل المرجعية السياسية مرتكزًا أساسيًا في روايات ضياء جبيلي، إذ تحضر بوصفها قوة مهيمنة توجه البناء السردي وتمنحه عمقه الدلالي.

• نجح الكاتب في تحويل الأحداث السـياسـية الكبرى في تاريخ العراق الحديث إلى عناصر فنية فاعلة داخل النص الروائي.

• تكشف الروايات بنية الاستبداد والعنف، وتبرز أثر السياسة في:

• تفكيك البنية الاجتماعية، وتشويه مصائر الأفراد،

• إعادة تشكيل العلاقات الإنسانية تحت ضغط السلطة.

• لا تكتفي الرواية عند جبيلي بتسجيل الوقائع التاريخية، بل تتجاوز التوثيق إلى:

• مساءلة الحدث السياسي، ونقده، وإعادة تأويله سرديًا.

• يوظّف الكاتب أدوات فنية متعددة، منها: التخيل، السخرية، التكثيف الرمزي، استدعاء الذاكرة الجماعية.

• تكشف الروايات أن السياسة ليست عنصرًا خارجيًا منفصلًا عن الحياة اليومية، بل هي قوة متغلغلة في تفاصيل الوجود الإنساني، بدءًا من:

• الطفولة والتعليم، وصولًا إلى الحرب والنزوح والموت.

• تسهم أعماله في ترسيخ خطاب روائي نقدي يعيد قراءة التاريخ السياسي العراقي من منظور إنساني لا سلطوي.

• يتحول السرد الروائي إلى فضاء لمقاومة النسيان، وكشف المسكوت عنه، وتعرية البنى السلطوية التي صنعت المأساوية العراقية.

المصادر

١. (دون مؤلف) .(1995) .أسوار الطين في عقدة الكويت وأيديولوجيا الضم .بيروت: دار الكنوز الأدبية.
٢. أبو ديب، كمال. (١٩٨٥). الأدب والأيديولوجيا .مجلة فصول، .(4)القاهرة.
٣. البصري، عبد الجبار داوود. (د.ت). ملاحظات عن النقد القصصي في العراق. في ملتقى القصة الأول (إعداد دائرة الشؤون الثقافية). بغداد.
٤. جبيلي، ضياء. (د.ت) .أسد البصرة (ط١). كولونيا–بغداد: دار الجمل.2026
٥. جبيلي، ضياء. (د.ت) .الاسم على الأخمص .بغداد: دار الجمل.٢٠١٨
٦. جبيلي، ضياء. (د.ت) .البطريق الأسود .بغداد: دار الجمل.٢٠٢١
٧. جبيلي، ضياء. (د.ت) .تذكار الجنرال مود .بغداد: دار الجمل.٢٠١٨
٨. جبيلي، ضياء. (د.ت) .ساق الفرس .بغداد: دار الجمل.٢٠١٩
٩. جبيلي، ضياء. (د.ت) .لعنة ماركيز .بغداد: دار الجمل.٢٠٠٧
١٠. حسين، فهد .(2016) .مرجعيات ثقافية في الرواية الخليجية (ط١). مسقط: بيت الغشام.
١١. حمادي، محمد إبراهيم .(2025) .العنف في روايات ضياء جبيلي (أطروحة دكتوراه غير منشورة). جامعة تكريت.
١٢. الحمداني، حميد .(1990) .النقد الروائي والأيديولوجيا (ط١). بيروت: المركز الثقافي العربي.
١٣. الخزرجي، نزار عبد الكريم فيصل .(2014) .الحرب العراقية–الإيرانية: ١٩٨٠–١٩٨٨: مذكرات مقاتل (ط١). الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
١٤. الرويلي ، ميجان و البازعي، سعد، .(2002) .دليل الناقد الأدبي (ط٣). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
١٥. السكاف، حسين .(2014) .صورة الوجع في الرواية العراقية (ط١). بغداد: الرواسم للصحافة والنشر والتوزيع.
١٦. صاغية، حازم .(2003) .بعث العراق: سلطة صدام قيامًا وقعودًا (ط١). بيروت: دار الساقي.
١٧. صالح، مفقودة .(2003) .صورة المرأة في الرواية الجزائرية .الجزائر: شركة الهدى للنشر.

١٨. طاهر، ميثم هاشم .(2021) .الرؤية الأسيانية للعالم: الرواية السيرية في الأدب العراقي الحديث (ط١). بيروت: دار الرافدين؛ جامعة الكوفة.
١٩. عودة، جميل .(2009) .المقابر الجماعية في العراق (ط١). بغداد: مؤسسة الشهداء.
٢٠. عيسى، حامد محمود .(2005) .القضية الكردية في العراق من الاحتلال البريطاني إلى الاحتلال الأميركي (ط١). القاهرة: مكتبة مدبولي.
٢١. فضل، صلاح .(2003) .أساليب السرد في الرواية العربية (ط١). دمشق: دار المدى.
٢٢. اللامي، سارة .(2019) .المرجعيات الثقافية في شعر ابن الأبار القضاعي (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة ميسان.
٢٣. هياجنة، عدنان. (١٩٩٩). العنف السياسي. في قضايا منهجية في تفسير ظاهرة العنف السياسي .دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية.
٢٤. وادي، طه .(1994) .دراسات في الرواية (ط١). القاهرة: دار المعارف.
٢٥. وادي، طه .(2003) .الرواية السياسية (ط١). القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر.

References

1. Anonymous. (1995). *Mud walls in the Kuwait crisis and the ideology of annexation*. Beirut: Dar Al-Kunooz Al-Adabiyya.
2. Abu Deeb, Kamal. (1985). Literature and ideology. *Fusoul Journal*, (4). Cairo.
3. Al-Basri, Abdul Jabbar Dawood. (n.d.). Notes on short story criticism in Iraq. In *Proceedings of the First Short Story Forum* (prepared by the Directorate of Cultural Affairs). Baghdad.
4. Jibaily, Diaa. (n.d.). *The lion of Basra* (1st ed.). Cologne–Baghdad: Dar Al-Jamal.
5. Jibaily, Diaa. (n.d.). *The name on the sole*. Baghdad: Dar Al-Jamal.
6. Jibaily, Diaa. (n.d.). *The black penguin*. Baghdad: Dar Al-Jamal.
7. Jibaily, Diaa. (n.d.). *General Maude's memento*. Baghdad: Dar Al-Jamal.
8. Jibaily, Diaa. (n.d.). *The horse's leg*. Baghdad: Dar Al-Jamal.
9. Jibaily, Diaa. (n.d.). *The Marquis's curse*. Baghdad: Dar Al-Jamal.
10. Hussein, Fahd. (2016). *Cultural references in the Gulf novel* (1st ed.). Muscat: Bayt Al-Ghasham.
11. Hammadi, Mohammed Ibrahim. (2025). *Violence in the novels of Diaa Jibaily* (Unpublished doctoral dissertation). Tikrit University.
12. Lahmadani, Hamid. (1990). *Narrative criticism and ideology* (1st ed.). Beirut: Arab Cultural Center.
13. Al-Khazraji, Nizar Abdul Karim Faisal. (2014). *The Iran–Iraq War: 1980–1988: A soldier's memoirs* (1st ed.). Doha: Arab Center for Research and Policy Studies.
14. Al-Ruwaili, Megan, & Al-Bazai, Saad. (2002). *The literary critic's guide* (3rd ed.). Casablanca: Arab Cultural Center.
15. Al-Sakkaf, Hussein. (2014). *The image of pain in the Iraqi novel* (1st ed.). Baghdad: Al-Rawasem for Press, Publishing and Distribution.
16. Saghieh, Hazem. (2003). *The Iraqi Baath: Saddam's power in rise and fall* (1st ed.). Beirut: Dar Al-Saqi.
17. Saleh, Mafqouda. (2003). *The image of women in the Algerian novel*. Algeria: Al-Huda Publishing Company.
18. Tahir, Maytham Hashim. (2021). *The Asiatic vision of the world: The autobiographical novel in modern Iraqi literature* (1st ed.). Beirut: Dar Al-Rafidain; University of Kufa.
19. Ouda, Jameel. (2009). *Mass graves in Iraq* (1st ed.). Baghdad: Martyrs Foundation.
20. Issa, Hamed Mahmoud. (2005). *The Kurdish question in Iraq from the British occupation to the American occupation* (1st ed.). Cairo: Madbouly Library.

21. Fadl, Salah. (2003). *Narrative techniques in the Arabic novel* (1st ed.). Damascus: Dar Al-Mada.
22. Al-Lami, Sara. (2019). *Cultural references in the poetry of Ibn al-Abbar al-Quda'i* (Unpublished master's thesis). Maysan University.
23. Hayajneh, Adnan. (1999). Political violence. In *Methodological issues in interpreting the phenomenon of political violence*. Studies: Humanities and Social Sciences.
24. Wadi, Taha. (1994). *Studies in the novel* (1st ed.). Cairo: Dar Al-Ma'arif.
25. Wadi, Taha. (2003). *The political novel* (1st ed.). Cairo: Egyptian International Publishing Company.